

## لمصلحة من تهدم الجسور؟

معظم

أهل السنة لا يعرفون شيئاً عن مذاهب وأفكار الشيعة، وبعضهم عرف قليلاً عنها من أقوال أو عبارات أو أحكام إداة أو هجوم من هنا وهناك، وبعضهم أخذ معلوماته من كتب قديمة كان لأصحابها عداً شديد للشيعة، وكان هذا العداً في الأصل لأسباب سياسية حول الخلافة والحكم وليس خلافاً حول أصول الدين.. والنتيجة أن فكرة أهل السنة عن الشيعة مختلطة بكثير من الأكاذيب والشائعات.. وهذا هو السبب في أن معظم أهل السنة ينظرون إلى الشيعة جميعاً على أنهم فرقة واحدة، مع أنهم فرق كثيرة.. منها فرق معتدلة لا تختلف كثيراً عن أهل السنة، وفرق أخرى لها أفكار غريبة وبعيدة هي التي يسمونها (غلاة الشيعة) ولا بد أن نفرق بين هؤلاء وهؤلاء، لأن الخلط بينهما واعتبارهما شيئاً واحداً هو الذي أدى إلى استمرار الجفوة. بدون مير.

وأول من كتب عن مذاهب وفرق الشيعة بحياد وموضوعية هو الدكتور على سامى النشار أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة الإسكندرية رحمة الله عليه. وقد تتلمذت على يديه، وكنت مفتوناً بإخلاصه للعلم، وتفرغه الكامل للبحث، وإطلاعه الواسع على كتابات فرق غلاة الشيعة، وهي كتابات لا يطلع عليها غيرهم، ويعتبرونها من الأسرار. ولذلك كان كتابه «نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام» الجزء الثانى عن نشأة التشيع وتطوره، هو أول وأهم كتاب يشرح بالتفصيل كل شىء تقريباً عن المعتدلين و المتطرفين من الشيعة. وقد طبع حتى الآن ثمانى طبعات فى دار المعارف.

وفى سنة ١٩٦٨ أصدر الدكتور النشار الطبعة الرابعة وفيها أعلن اكتشافه الخطير بعد دراسة التاريخ السرى أو الباطنى للشيعة الغلاة، وهو أن (القبالة) اليهودية كان

لها التأثير الكبير في عقائد الشيعة الباطنية الغلاة. وتوصل أيضا إلى حقائق مؤيدة بالدليل والوثائق والمراجع وهي باختصار:

**أولاً:** أن الأفكار التي يعتنقها الشيعة الاثنا عشرية في مجموعها إسلامية بحتة لا تتعارض مع أفكار أهل السنة.

**ثانياً:** أن هناك طوائف شيعية متأثرة بأفكار ومعتقدات دخيلة على الفكر الإسلامي، وأخطر هذه العناصر الأجنبية هي الكبالا أو القبالا اليهودية التي نشأت وعاشت في الشام والعراق وكان لها موطن خفي في اليمن حيث كانت اليهودية مترسخة.

**ثالثاً:** أن الاختلافات بين مذاهب وفرق الشيعة اختلافات كبيرة وجوهرية.. وإن كان الإطار العام للتشيع واحداً، إلا أن التشيع يختلف بعد ذلك بين فرقة وأخرى. وعلى سبيل المثال هناك اختلاف بين عقائد الشيعة الإمامية -وهي الفرقة التي أنشأها الإمام جعفر الصادق وتلاميذه-، وعقائد الشيعة الاثني عشرية وهي الفرقة التي أنشأها للجهودون من علماء الشيعة بعد غيبة الإمام الثاني عشر. وهناك اختلاف صارخ بين فلسفة الفرقة الإسماعيلية الأولى وبين فلسفة الغلاة منهم الذين يسمون (الخطابية).

**رابعاً:** أن أهل السنة والجماعة استندوا على النقل والعقل، أما الشيعة فإنهم اعتمدوا في نشأتهم الأولى على النقل فقط، والنقل عن طريق واحد، وعن مجموعة خاصة من أئمة أهل البيت وبعض أصحاب الرسول ﷺ وأتباع الإمام علي بن أبي طالب.

**خامساً:** أن علماء الشيعة المعتدلين في عصرهم الأول وقفوا بقوة للدفاع عن الإسلام في مواجهة أعدائه وشاركوا علماء أهل السنة في إقامة البناء العقائدي الإسلامي متكاملًا. ومن الثابت تاريخياً أن مدرسة الإمام جعفر الصادق وعالمها الكبير هشام بن الحكم، قامت بالدور الأكبر في هذا البناء العقائدي الإسلامي.

**سادساً:** أن الشيعة أقاموا مذهبهم على شخص واحد هو الإمام علي بن أبي طالب وزوجته السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، ونسلهما وأحاطوهم بقداسة

كبرى، وشاركهم أهل السُّنة في محبة عليّ وآل البيت جميعاً، ولكنهم أعطوا قداسة كبرى للجماعة ورأوا أن الجماعة لا تجتمع على ضلالة، بينما رأى أهل الشيعة أن الجماعة قد تخطئ وقد تصيب، ولكن الإنسان الفرد ذا السلطة لن يخطئ أبداً، وأضافوا إلى هذا الإنسان العصمة واعتبروه معصوماً من الخطأ. ومحبة الإمام عليّ وأهل البيت ليست موضع خلاف، وقصة إسلامه وجهاده وأبوته لنسل الرسول - ﷺ - (الحسن والحسين) كل ذلك محل تقدير أهل السُّنة، لكن الخلاف يظهر بعد ذلك.. فالشيعة آمنت به وحده، بينما أهل السُّنة احترّموا أبا بكر وعمر، وازداد الخلاف إلى حد القطيعة والعداء والحرب عندما وقف معاوية ضد عليّ، وحاربه، وهنا بدأ الشيعة في معاداة معاوية.. بل ومعاداة أبي بكر وعمر أيضاً حتى بعد موتها. واعتبروا خلافتهم باطلة لأنهم اغتصبوا الخلافة من صاحبها الشرعي وهو الإمام عليّ. وبدأ أبناء الإمام عليّ والسيدة فاطمة الزهراء يكتبون بدمائهم أكبر الملاحم. ومات الإمام الحسن مسموماً. وبعد معاوية أصبح ابنه يزيد هو الخليفة، وقتل الحسين بن عليّ بوحشية لم يعرف التاريخ لها مثيلاً. وقتل زيد بن عليّ في ملحمة أخرى.. وتتابعت الملاحم، والمذهب الشيعي يتشعب ويتضخم حتى تولى العباسيون الحكم فذاق نسل عليّ منهم الذل والموت أشد مما ذاقوا من الأمويين، وكلما اشتد الاضطهاد على شيعة عليّ ونسله ازداد المذهب الشيعي تشدداً وانتشاراً.. وفي العالم اليوم ملايين الشيعة: اثنا عشرية، وإمامية واسماعيلية، وزيدية، ثم غلاة الشيعة المنتشرون.

كبرى فرق الشيعة المعاصرة هي الاثنا عشرية، وهي فرقة إسلامية بحتة وعقائدها لا تكاد تختلف عن عقائد أهل السُّنة.

نظرية (الإمامة) هي الأساس في فقه الشيعة. وهي عقيدة مؤداها أن عليّ بن أبي طالب هو الإمام بعد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن الإمامة لا تخرج عنه وعن أولاده، وإذا خرجت فإن ذلك يكون ظلماً ممن اغتصب الإمامة.

سابعاً: أن مذهب الشيعة الزيدية يقترب من أهل السنة.

وفى عقائد الشيعة مكانة قدسية للسيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، ويعتبرونها البرهان على عقيدتهم فى الحق الإلهى للإمام علىّ فى الخلاقة وبأنها الشهادة الكبرى من الرسول ﷺ على أحقية علىّ فى خلافة الرسول ﷺ فى الدين والدنيا. وأهل السنة يرفعون السيدة فاطمة إلى مكانة كبيرة إلا أنهم ينكرون أن النبى ﷺ نص صراحة على ولاية علىّ.

والإسلام دين واحد ليس فيه أهل سنة وشيعة ولا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى. وهذا ما جعل الدكتور مصطفى الشكعة يؤلف كتابا مشهورا يدعو فيه إلى (إسلام بلا مذاهب) قال عنه الشيخ شلتوت فى مقدمته: إنه محاولة لتوحيد الصف الإسلامى. وقال الدكتور الشكعة: إن اختلاف المذاهب والعقائد فى ظل دين واحد ورسول واحد يستغلها ذوو النيات السيئة فى ضرب المسلمين بعضهم ببعض، بينما الفارق ليس واسعا بين كثير من المذاهب، واللقاء بينها أيسر مما يظن كثيرون.. وفى اللقاء قوة. وأعتقد أن الدعوة إلى إلغاء المذاهب ليست واقعية، لأن عقول البشر تختلف فى المسألة الواحدة، ومناهج البحث والتفكير متعددة، وتختلف النتائج باختلاف الدليل الذى يثق فيه الباحث ويعتمد عليه، وقديماً قيل إن اختلاف الفقهاء رحمة بالمسلمين لأن فيه توسعة ومجال للاختيار مادام الجميع ملتزمون بالكتاب والسنة ولا يحدون عنهما.

□□□

وللإمام علىّ مكانة عالية عند أهل السنة والشيعة، وإن كان بعض الشيعة قد حملوه ما يطيق ومالا يطيق من أحاديث تؤيد وجهة نظرهم. أهل السنة يذكرون بطولة وإيمان علىّ فى طفولته وشبابه، ويذكرون شجاعته فى الحروب، وعلمه، وورعه، ويذكرون كيف افتدى الرسول بنفسه فى معظم مواقع القتال.. وهو العالم والفقير، وقد عاش فى خلافة أبى بكر وعمر منكرًا لذاته وقدم لهما العون والنصيحة مخلصًا، وهو- عند أهل السنة- رابع الخلفاء الراشدين، ويرون أنه كان على حق فى

قتاله أصحاب الجمل ومعاوية.. وهو الوحيد الذي احتفظ بلقب (الإمام) في كتب أهل السنة. ولم تفلح دعاية الأمويين ضده في تغيير نظرة أهل السنة إليه. أما الشيعة فقد تمسك بعضهم بأحاديث نبوية تثبت أنه الخليفة للرسول ﷺ، وفسّروا بعض الآيات القرآنية تفسيراً خاصاً يؤدي إلى أن الإمامة والخلافة له، وذكروا أن هذه وصية الرسول لقوله ﷺ: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» وتمسك هؤلاء بولاية عليّ وعصمته وبأنه وارث العلم النبوي الخاص الذي لم يُطلع عليه النبي ﷺ أحداً حين موته سوى عليّ بن أبي طالب. وقال بعض الشيعة في الكوفة عقب مقتل الإمام عليّ بأن الرسول ﷺ ترك له كتباً خاصة وحددت الشيعة المتأخرة هذه الكتب على أنها: مصحف فاطمة، وعلى هامشه علم ما كان وما يكون وما هو كائن، وقالوا: إن النبي ﷺ أملاه لصاحب الأمر بعده.. ثم يظهر أثر الأساطير والفولكلور مثل اختصاص أئمة الشيعة بحقيقة تفسير الاسم الأعظم وأسراره، وفي هذا يطول الشرح.. ويتداول الشيعة صور الإمام عليّ ويده كرامات لا تقل عن المعجزات، حتى إنهم قالوا: إن الرسول ﷺ قال عن بدء الوجود: «كنت أنا وعليّ بن أبي طالب قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام، فلما خلق الله آدم، انتقل النور في الأصلاب الطاهرة، والأرحام الزكية حتى صار في عبد المطلب، فانقسم النور قسمين: قسم في عبد الله، وقسم في أبي طالب، فكان لي النبوة ولعليّ الوصية».

ويذكر بعض الشيعة أن الرسول ﷺ سأل الأنبياء في المعراج عن سبب رفعهم إلى هذه الدرجة، فشهدوا جميعاً بأنهم رفعوا بفضل نبوته وإمامة عليّ بن أبي طالب، والأئمة من صلبك، فجاء النداء أن انظر إلى عيّن العرش، فنظر النبي فإذا بأشباح عليّ وبنيه وحفدته وهم يصلون في بحر من النور، فقال الله تعالى: (هؤلاء حججى وأوصيائي وأوليائي، ومنتقم آخرهم من أعدائي) وهكذا يروى هؤلاء عشرات الأحاديث في رفع مكانة الإمام عليّ، حتى عندما دفن في النجف قريباً من الكوفة

حيث مشهد الإمام الحسين، أعلن الشيعة الإمامية المعتدلة أن النبي إبراهيم ذكر أنه سيكون في هذا المكان قبر عليه مشهد عظيم يفوز به سبعون الفا يدخلون الجنة بغير حساب ويشفعون لغيرهم، وهذا المكان هو وادي السلام، وهو جزء من جنة الله الباقية، وإليه تحشر أرواح الشيعة.

ويجتمع الشيعة الإمامية من كل فج ليقفوا باكين أمام الإمام على المعصوم، أول الأئمة، الصابر على الغضب، المقتول ظلما وعدوانا، يلتمسون منه الشفاعة في اليوم الآخر، ومن قبره الشفاء في هذه الحياة الدنيا، وينادون يا وارث الأنبياء، ويهتف الشيعة منهم: أشهد أنك كلمة التقى والأصل الثابت.

□□□

ومذاهب الشيعة كثيرة، وبينهم اختلافات، بعضهم معتدل قريب من أهل السنة، وبعضهم يشط بعيدا ويردد أفكارا وأقوالا من ديانات أخرى. سنجد الشيعة الحنفية أتباع الإمام محمد بن الحنفية، والشيعة الأبو هاشمية نسبة إلى الإمام أبي هاشم محمد بن الحنفية. وسنجد غلاة الشيعة الإمامية. وغلاة الجعفرية. بينما سنجد الشيعة الإمامية المعتدلة وهؤلاء يؤمنون بالعصمة للأنبياء والأئمة، وسنجد الشيعة الاثني عشرية يؤمنون بأن الأئمة اثنا عشر إماما أولهم الإمام علي بن أبي طالب، وآخرهم الإمام الغائب. ويبدأ الخلاف بين الشيعة الاثني عشرية وبين أهل السنة في مفهوم الإمامة اختلافا كبيرا. هم قالوا: إن وجود الإمام واجب، والإمامة هي جوهر العقيدة الشيعية الاثني عشرية، فالإيمان هو الاعتراف بوحدانية الله، وتبوة محمد ﷺ، وموالاته الإمام العصر. والإمام عندهم هو مصدر التشريع بعد القرآن والسنة المؤكدة. والسنة المؤكدة عندهم هي الصادرة عن سلسلة الرواة من أهل البيت فقط، ولا يقبل الشيعة حديثا له سند من أحد الرواة من غير أهل البيت، فالإمام هو وارث العلم النبوي، وهو يعلو على البشر باتصاله الدائم بالعلم الإلهي، والإمامة عندهم تنتقل بتسلسل قدرة الله، وليس للبشر حق اختيار الإمام وإلا فسد أمر الشريعة، لأن

حفظ الشريعة موكول بالإمام المعصوم، ويرى الشيعة الاثنا عشرية أن الإمام له سلطة كونية، وأنه هو الأمان لأهل الأرض كما أن النجوم هي الأمان لأهل السماء. والأئمة هم الذين تَمَسَّك بهم السماء فلا تقع على الأرض، ولا تتمد الأرض بأهلها، وينزل بهم الغيث، وتنتشر الرحمة.. الخ  
تفاصيل كثيرة.. نجد لها مثيلا في بعض معتقدات الصوفية وأهل السنة.. بل نجد لها مثيلا في كل الديانات نتيجة المبالغة في الحب.  
والمهم أن نفهم منزلة الإمام ومكانته عند الشيعة لنعرف كيف نتعامل مع الأئمة المعاصرين.

□□□

يقول محمد الحسين آل كاشف الغطاء وهو من كبار علماء الشيعة الذين شاركوا في تأسيس جماعة التقريب بين المذاهب: إنه من المستحيل إزالة الخلاف بين المذاهب الإسلامية وجعلها مذهباً واحداً لأن الخلاف واختلاف الرأي من طبيعة البشر، وخالف البشر يقول في سورة هود آيتي ١١٨، ١١٩: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۗ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۗ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾

فلا يجدى التفكير في إزالة أصل الخلاف بين المذاهب، وأقصى ما يمكن الوصول إليه هو إزالة الأسباب التي تجعل هذا الخلاف سبباً للعداء. وأن يكون الإخاء والتقارب بديلاً عن التباعد والتضارب، لأن المسلمين مهما بلغ الخلاف بينهم فإنهم مجمعون على الشهادتين، ومن شهد الشهادتين فقد اتخذ الإسلام ديناً وحُرِّمَ دمه وماله وعرضه.. والمسلم أخو المسلم.. ومن صلى إلى قبلتنا ولم يتدين بغير ديننا فإن له مالنا وعليه ما علينا.

ويقول: إن الفرق الجوهرية بين أهل السنة والشيعة هو قضية الإمامة، فالشيعة ترى أن الإمامة أصل من أصول الدين، بعد التوحيد والنبوة، وأنها بالنص من الله

ورسوله، وليس للأمة رأى فيها ولا اختيار، كما أن الأمة ليس لها خيار فى النبوة، وإخواننا من أهل السنة متفقون على أن الإمامة ليست من أصول الدين، ويرون أن الإمامة يجب أن تكون بإجماع الأمة واختيارها وأنها قضية سياسية ليست من الدين، لا من أصوله، ولا من فروعه، ولكن مع هذا التباعد هل يرى الشيعة أن من لا يؤمن بالإمامة ليس مسلماً؟ كلا ومعاذ الله. وهل تجد السنة تقول إن من يؤمن بالإمامة غير مسلم؟ كلا ومعاذ الله. هل يقول أهل السنة: إن القائل بالإمامة خارج عن الإسلام؟ لا.. وكلا. إذن فإن القول بالإمامة أو إنكارها لا علاقة له بأحكام الإسلام الجامعة من حرمة دم المسلم ووجوب أخوته.

وبصراحة يقول الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء. لعل قائلًا يقول: إن سبب العداء بين الطائفتين أن الشيعة ترى جواز المس من كرامة الخلفاء أو الطعن فيهم، وقد يتجاوز البعض إلى السب، مما يسىء إلى الفريق الآخر ويهيج مشاعرهم فتشدد الخصومة بينهم. ولو تبصرنا قليلاً ورجعنا إلى حكم الشرع والعقل لم نجد ذلك موجبا للعداء:

أولاً: لأن هذا ليس رأى جميع الشيعة، وإنما هو رأى بعضهم، وربما لا يوافق عليه الأكثر، فلا يصح معاداة الشيعة جميعاً لإساءة بعض المتطرفين منهم.

ثانياً: أن هذا لا يكون موجبا للكفر والخروج على الإسلام، وأقصى ما هناك أن يكون معصية، وما أكثر العصاة من الطائفتين، ومعصية المسلم لا تستوجب قطع رابطة الأخوة الإسلامية معه قطعاً.

ثالثاً: قد لا يدخل ذلك فى المعصية، ولا يوجب الحكم بالفسق إذا كان ناشئاً عن اجتهاد واعتقاد، وإن كان خطأ، فإن من المسلم به عند الجميع فى باب الاجتهاد أن من اجتهد وأخطأ فله أجر ومن اجتهد وأصاب فله أجران، وقد صحح علماء أهل السنة الحروب التى وقعت بين الصحابة فى الصدر الأول كحرب الجمل وصفين وغيرهما، بأن طلحة والزبير ومعاوية اجتهدوا، وإن أخطأوا فى اجتهادهم فإن ذلك

لاينال من مكانتهم، فإذا كان الاجتهاد لا يبرر قتل المخالفين . فالأولى أن يبرر تجاوز بعض المتطرفين على تلك المقامات للحزمة.

وهكذا مهما تعمقنا فى البحث واعتمدنا على الأدلة العقلية والشرعية وتجردنا من الهوس والعصبية فلن نجد أى سبب يبرر العداء بين طوائف المسلمين مهما اتسعت الخلافات بينهم فى كثير من المسائل مادامت هذه المسائل الخلافية لا تنكر أصلا من أصول الإسلام أو ركنا من أركانه.

وكيف نقبل استمرار الخلافات بعد كل ما سببته من البلاء، مثل ضياع الأندلس والقوقاز وبخارى ونحوها؟ ولو أن المسلمين كانوا فى تلك الأيام يدا واحدة كما أمرهم الله لما انتزع منهم شبر واحد، ولننظر الآن إلى ما يحدث فى فلسطين وهى الفردوس الثانى المفقود.

وفى هذا السياق كتب الفقيه الأكبر الشيخ حسنين مخلوف وهو مفتى الديار المصرية يقول: إننى من المؤمنين بفكرة التقريب بين المذاهب لأن الإسلام دين الوحدة كما هو دين التوحيد، يشرع أسباب التجمع، وينهى عن أسباب التفرق، وينهى عن الجدل فيما لا يجدى. ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ (آل عمران آية

١٠٥) و ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِعَاعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (الأنعام آية ١٥٩)، و ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ

بِعَيَابِهِمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّ بَيْنَهُمْ وَالَّذِينَ آوَرْتُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكِّ مِنْهُ مَرِيْبٌ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا

أَمَرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَأُحْجَجَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا

وَالِيهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ (الشورى آيتى ١٤ - ١٥)

ويقول الشيخ مخلوف: إن المسلمين منذ عرفوا الاختلاف والطائفية وصاروا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون، وهنت قواهم، وتمكن منهم أعداؤهم، وجعلوا ينحدرون من سىء إلى أسوأ.

وكتب الشيخ عبد المتعال الصعیدی وهو من كبار أساتذة الأزهر يقول: إن الخليفة المأمون رأى أن يعقد مجالس مناظرة بين الفرق الدينية، فأمر قاضى القضاة- وكان من أهل السنة- أن يجمع الفقهاء وأهل العلم فى بغداد، فاختر أربعين رجلا من الأعلام، ولكنه- مع ذلك لم يستطع أن يجمع المسلمين على مذهب واحد، فلجأ إلى إكراه المخالفين على ترك مذهبهم فلم يحقق ذلك سوى التعصب والعناد. وحتى عندما لجأ المأمون إلى سجن المخالفين لم يحقق ذلك شيئا ولكنه أدى إلى زيادة الخلاف. وقد جعل المأمون أهل السنة يقولون بالإكراه: إن القرآن مخلوق، فشغل الدولة بهذه القضية (هل القرآن قديم أو مخلوق؟) وانصرف الناس عن الأمور النافعة وأدى ذلك إلى ضياع سنوات فى الخلافات والصراعات. والدرس المستفاد من ذلك أن يُترك الناس أحراراً فيما يعتقدون، حتى الكافر المعاند، فلا يصح أن يحمل بالإكراه على ترك الكفر تحت تهديد بالعقاب، لأن الله تعالى قال فى الآية (٢٩) من سورة الكهف: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾

فلم يذكر عقابا للكافر فى الدنيا، ولكن ذكر عقابه فى الآخرة، لأن عقاب الدنيا لا يؤدى إلى الإيمان، ولكن يؤدى إلى النفاق والتظاهر بالإيمان.. وهذا ما تؤيده الآية

الكريمة فى سورة البقرة (٢٥٦): ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾

وكان من نتيجة تفهم علماء أهل السنة لمذاهب الشيعة أن خرجوا عن دائرة مذاهب أهل السنة الأربعة إلى مذهب من مذاهب الشيعة، وذلك فى قانونى الطلاق

والوصية وغيرهما وكما أخذوا برأى ابن تيمية، وابن القيم، أخذوا من الشيعة الإمامية، وتم ذلك بهدوء ورضا، وفي الأخذ بعهاد السُّنة والشيعة المعتدلة توسعة للمسلمين.

□□□

هل يمكن أن يتنازل أصحاب مذهب معين عن مذهبهم؟ ومعنى آخر، هل ترضى الشيعة أن تتنازل للسُّنة عن أفكارها، أو.. يرضى أهل السُّنة باعتراف أفكار الشيعة بالكامل؟.

كانت هذه هي نقطة الهجوم الرئيسية على فكرة التقريب بين المذاهب، بالرغم من أنها دعوة إلى التقريب وليس التوحيد، دعوة إلى التفاهم والتعايش وليست دعوة إلى الإلغاء أو التنازل، وكان الإمام محمد تقي القمي يجيب كلما واجهته هذه الاعتراضات بالقول بأن الفكرة أن يتحد أهل الإسلام على أصول الإسلام التي لا يكون المسلم مسلماً إلا بها، أما نقط الخلاف في الفروع فعليهم أن ينظروا فيها بالتسامح، ويعذر بعضهم بعضاً فيها، فإذا استطاعوا أن يصلوا بالحجة والدليل إلى اتفاق في شيء منها فهذا خير، وإذا بقي كل طرف على موقفه فليحفظ بما يراه، على أساس أن الخلاف في أمر لا يدخل ضمن أصول الدين لا ينقص الإيمان، ولا يخرج المختلفين عن دائرة الإسلام. وليس في نقاط الخلاف بين أهل السُّنة والشيعة ما يستحق الخصام، ولم يحدث أن قال أحد من علماء أهل السُّنة بعهادها، والشيعة الإمامية والزيدية، بكفر طائفة منها، أو الخروج عن الإسلام، لأن العلماء في مذاهب أهل السُّنة والشيعة أجمعوا على أنه لا خلاف في المسائل الجوهرية، ومن يعرف أصلاً من أصول الإسلام أنكرته إحدى هذه الطوائف أو أنها زادت من أصول الإسلام ما ليس منها على سبيل اليقين، فليدلنا عليه ويقدم برهانه على ذلك.

وكان أعضاء جماعة التقريب بين المذاهب متفقين على أن المسلمين كلهم شيعة لأنهم جميعاً يحبون أهل بيت الرسول ﷺ، وكلهم أهل سُنَّة لأنهم جميعاً ملتزمون

بالأخذ بسنة الرسول المؤكدة، فنحن جميعا سُنيون، شيعةيون، قرآنيون، محمديون. وكانوا يرون أن الخلافات بين أهل السنة موجودة بين مذهب الشافعية ومذهب الحنفية في بعض المسائل، مثل نواقض الوضوء مثلا، فهل نعتبر ذلك خلافا يوجب ابتعاد أحدهما عن الآخر؟ لأن الخلاف أمر طبيعي، وما دام محدودا في الدائرة التي أباح الله الاجتهاد فيها، فلا ضرر منه، بل فيه خير وتيسير للمسلمين.. ومع ذلك فإن أصحاب المذاهب الفقهية أنفسهم أباحوا الخروج على مذاهبهم، وأباحوا الأخذ ببعض ما فيها والأخذ ببعض ما في غيرها في نفس الوقت، وكان الإمام الشافعي يقول: هذا هو الرأي الذي رأيته، فإذا صح الحديث بما يخالف رأبي، فأضربوا بقولي عرض الحائط، فالمرجع هو قول الله والحديث المؤكد عن الرسول ﷺ، والقاعدة التي أوجبها الله علينا في كتابه: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾ (النساء آية ٥٩) هكذا فإن كل مجتهد لابد أن يرى أن مذهبه الفقهي صواب يحتمل الخطأ، ومذهب غيره خطأ يحتمل الصواب.

ولماذا لا يدرس أهل السنة مذهبى الشيعة الإمامية والزيدية، ويدرس الشيعة مذاهب أهل السنة الأربعة..؟ لماذا لا يعرف المسلمون بعضهم بعضا؟ ولقد كان الأزهر الشريف قلعة التسامح الفكرى فقررت دراسة مقارنة للمذاهب منذ عهد الإمام الأكبر الشيخ المراغى، وتبعه الإمام محمود شلتوت، كما أن الأزهر حريص على دراسة مذاهب الفلاسفة أيضا، والمعتزلة، والجبرية وغيرهم، ليكون رجل الدين المسلم على علم بكل المذاهب والنظريات الإسلامية القديمة والحديثة..

ولا شك أن الخطوة الكبرى كانت عندما أخذ قانون الأحوال الشخصية فى مصر فى السبعينات بأحكام من فقه الشيعة وكان الذين أعدوا هذا القانون من صفوة رجال الأزهر وكبار علماء أهل السنة.

ونعود إلى قصة الخليفة المنصور عندما ذهب إلى الحج التقى بالإمام مالك ودرس مذهبه، فقال له: قد عزمت أن أمر بكتبك هذه فتنسخ، ثم أبعث بها في كل الأمصار، وأمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه إلى غيره، فقال له الإمام مالك: يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا.. فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث وروايات، وأخذ كل قوم بما وصل إليهم، وأتوا به من اختلاف الناس، فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم. هذا ما رواه التاريخ في ذلك الشأن الإسلامي الخطير كما ورد في كتاب (حجة الله البالغة للدهلوي- ص ٤٥- الجزء الأول).

فالخليفة شهد اختلاف العلماء في عصره، وأراد أن يوحد المسلمين على مذهب واحد لينتهي الجدل والخلاف بين العلماء، وأراد أن يكون مذهب الإمام مالك هو المذهب الأوحده، لكن الإمام مالك نفسه هو الذي رفض فكرة إلغاء المذاهب أو توحيدها، لأنه يرى أن الخلاف بين المذاهب ليس صادرا عن الهوى أو التعصب، ولكنه صادر عن اختلاف في الفهم والتفسير وهذا طبيعي بالنسبة للعقل البشري، وإن كان الجميع متفقين على الأصول إلا أن اعتماد الناس على روايات مختلفة عن أقوال وأفعال الرسول ﷺ باختلاف الرواة جعلهم يؤسسون مذاهبهم عليها، وربما تكون الرواية قد بلغت أهل بلد ولم تبلغ غيرهم، خصوصا أن الأحاديث النبوية لم تكن قد تم تدوينها وتمحيصها وكان الاعتماد على الذاكرة والحفظ.

وفي هذا الاختلاف بين المذاهب حكمة، لأن المسلم حر في أن يأخذ من كل مذهب ما يرتاح إليه قلبه ويقنع به عقله، وكلها معبرة عن جوهر الإسلام.. ومن مزايا الفقه الإسلامي أنه ترك باب الاجتهاد مفتوحا، لأن القضايا الجديدة التي تطرح للبحث في كل وقت لن تنتهي، ولن تتوقف عند حد، وكلما جاء جيل جاءت معه تصرفات وموضوعات وقضايا ومشكلات تحتاج إلى الاجتهاد في الوصول إلى الرأي الذي يتفق مع أصول الدين.

وليس الإمام مالك وحده هو الذى رفض توحيد أو إدماج المذاهب، ولكن الإمام أبا حنيفة أيضا رفض التعصب لمذهبه وكان يقول: لا ينبغي لمن لم يعرف دليلى أن يفتى بكلامى، وكان يقول بعد كل فتوى: هذا رأى، فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب.

كذلك كان الإمام الشافعى يتحفظ فى التمسك بمذهبه، ويقول: إذا صح الحديث (الذى يستند إليه هو أو غيره فى فتواه)، فهو مذهبي، ويقصد أنه إذا كان هناك حديث صحيح عن الرسول ﷺ يخالف فتواه. فإن هذا الحديث هو الذى يجب الأخذ به، وقال الشافعى لتلميذه إبراهيم المزنى: يا إبراهيم لا تقلدنى فى كل ما أقول، وانظر فى ذلك لنفسك.

وكان الإمام أحمد بن حنبل يقول: ليس لأحد مع الله ورسوله كلام. وكان يقول لكل تلميذ من تلاميذه: لا تقلدنى ولا تقلد الإمام مالكا ولا الأوزاعى ولا النخعى، ولاغيرهم، وخذ الأحكام من حيث أخذوا.. من الكتاب والسنة. وكان الإمام أبو حنيفة وأصحابه، والإمام الشافعى وأصحابه، يصلون خلف من يختلفون معهم فى المذهب، ويصلون خلف أئمة المدينة وكان مذهبهم ألا يقرأ الفاتحة إلا الإمام ولا يقرأها الآخرون، على أساس أن قراءة الإمام هى الواجبة وليس على الآخريين قراءة..

ولم يقل أحد إن باب الاجتهاد قد أغلق إلا فى عصر انحطاط المسلمين. أما الشيعة الإمامية والزيدية فقد رأوا باب الاجتهاد مفتوحا منذ البداية وإلى يوم الدين. والعقلاء من أهل السنة يرون ذلك أيضا..